الصناعات في سوريا ولبنان[1]

عند تصفحنا تاريخ النهضة الصناعية نرى انهُ في مبدإ الامر عندما كان النشاط البشري جنينياً في مهده في العصور الاولى كان سكان الكهوف يقطعون الصوان والخشب ليصنعوا اسلحة وآلات للدفاع عن انفسهم وحفظ كيانهم

يلي ذلك عصر تلوح امامنا الصناعة في بدء تطورها اذ نرى الانسان متفنناً يستبدل الحجارة بالمعادن ويتقن صنع ادواتهِ . نراهُ يستعمل لمصلحتهِ وعلى اهون حال ما امدتهُ بهِ الطبيعة من خشب وطين وقلّ وحديد . ثم نلاحظ بعد ذلك بعدة قرون التقدم البيّن فيما ينتجهُ توحيد مجهود العبيد والخدم والعمال مشتركة مع الآلات والصناعات

واخيراً في اوائل العصر الحديث نرى العجائب بفضل ما قام بهِ العلم من الاعمال الجليلة على اثر استعمال الغاز والبخار والكهرباء . وهناك فرق كبير بين المصانع الصغيرة والاكواخ الحقيرة التي يرجع عهدها الى القرون الاولى وبين المعامل العظيمة في الممالك الصناعية في هذه السنين

التقدم بيّن لا ريب فيهِ والخير العميم الناتج لا يمكن ان ينكر . والفضل في ذلك كلهِ للصناعة فرجل الفطرة مدين لها بان اتخذ لهُ بديلاً عن كهفهِ وصومعتهِ مسكناً قويًّا رغيداً حقيراً كان او فخماً . مدين لها اذ بعد ان كان يكسو عريهُ بجلد الحيوان استبدلهُ بحلل تقيهِ الحر والبرد . مدين لها اذ سهلت لهُ تجهيز الطعام والشراب وحفظهما صالحين شهوراً طويلة . مدين لها اذ امدتهُ عوضاً عن الحطب وهو غير ملائم للاستنارة والاستدفاء في حماهُ باجهزة وآلات اكثر أمناً واقل مائقاً . مدين لها اذ مكنتهُ من استثمار حقلهِ على اهون حال وزرعهِ على اصوب سبيل . مدين لها اذ جعلتهُ اكثر خبرة بحفظ مياه الجبال لادارة طواحينهِ وتحريك آلاتهِ . وباصلاحها اصبحا بعدانهِ بطحين ناعم وخيوط اكثر اتقاناً ومتانة . مدين لها بسهولة استكشاف تربة الارض ليعرف سر ما اختبأ في باطنها من مناجم وكنوز

(١) محاضرة القاها في ١١ يناير الماضي حضرة ادمون افندي بشاره المهندس في مركز الجمعية اللبنانية السورية للتربيجي للدارس العليا . وعربها عن الفرنسية حضرات محمد افندي سعيد حجوم وميشيل افندي بلدي المهندسين بمشروعات الري المصرية

مدين بتقصير المسافات له برًّا وبحراً وجوًّا

وبالجملة فهو مدين لها بمعظم ما جنى من سعادة ورخاء يتمتع بهما اليوم

يتبين من ذلك ان الصناعة قد كان لها على المدنية واحوال كيان الانسان اليد الطولى فبقدر ما كانت تتقدم كانت تحوّل الهيئة الاجتماعية الى ما فيه خيرها فهي بلا جدال من اقوى دعائم الهيئة الاجتماعية في تطورها

فالصناعة اذا لم تتقدم في بلد ما بقي حتماً متأخراً من الوجهة الاقتصادية رغماً عن نجاحه في سائر فروع السعي البشري. لذلك نرى مع الاسف ان سوريا الحالية بلد فقير ومتأخر رغماً عن ثروتها الطبيعية والروح التجارية التي تدب في صدور سكانها

ان الصناعة عامة لم تنتشر فيها الاّ يسيراً وحيثما انتشرت ما زالت في حالتها الاولى فالمحاريث والمعاصر والطواحين والمناسج وخوابي الخمر وقطّاراته والاكوار والمخارط والبواتق والمواقد ترجع الاّ القليل منها الى عهدها في العصور الوسطى هذا مع ان سوريا كانت مهد قوم كانوا امهر الصناع واقدرهم على سطح الارض. فصور وصيداء ودمشق تستعيد الى الذاكرة عهود انتاج صناعية عظيمة تباهي مثيلتها في نينوى وممفيس وبيزنته

كان الشرقيون في القرون الاولى والوسطى يبذلون كل ما اوتوا من ذكاء لتجميل مادة الوجود. ولقد ظهرت مدنيتهم في اشياء مادية يستلزمها تنعم الحياة وبهاؤها. وغير خاف ان كمال هذه الاشياء ودقتها يعدان مقياساً لتقدم الامم التي صنعتها

ففي الشرق صنع ادق الآنية ونحت اجمل التماثيل ونمق ابدع الاثاث وطبع على ابدع فرش وغزل وحيك ازهى الملابس وصنع اجمل الاسلحة وقطع أثمن الجواهر وادتها. وقطر اشذى الروائح العطرية. هنا حقاً كما يقول جوستاف لوبون «كان موطن الاستنارة والتقدم»

فالسوريون والفينيقيون خاصة بلغ نبوغهم في الصناعة درجة لا تقل عنها في التجارة. مارسوا كل فرع من فروعها كان معروفاً لديهم وضربوا في كل منها باوفر سهم. جلبوا المواد الاولية من بلاد قاصية كانوا يتاجرون معها وصنعوها تبعاً لذوقهم ثم قدموها ثانية باسم منتجاتهم الصناعية. وموقعهم المتوسط بين نينوى وممفيس كان عاملاً منشطاً ومحيياً لاشغالهم ومنتجاتهم دواليك على يد مصر واشور فينقلها تجارهم

ولقد ذكرت التوراة ان الملك سليمان كان يرجع الى صناع حيرام ملك صور في اعمال النحاس والخشب والحجارة والنحاس لهيكله

وذكر النبي حزقيال في الاصحاح السابع والعشرين فصلا مؤثراً عن ثراء فينيقية الناتج عن تجارتها ومصنوعاتها . واني لاكتفي بذكر احد الاعداد الاخيرة وهو عدد ٣٣ وفيه ملخص للاصحاح

« اي صور عند خروج بضائعك من البحار اشبعت شعوباً كثيرين . بكثرة ثروتك وتجارتك اغنيت ملوك الارض »

وذكر هوميروس في الالياذة عن الكأس الفضية البديعة التي قدمها اخيل في مأتم باتروقل قال « هذه الكاس ليس لها مثيل على الارض بجمالها انها من عمل صناع فينيقية المهرة »

وقال هيرودوتس المؤرخ عن الفينيقيين انهم قوم تجارة وصناعة

وكان اهل صور اول من اخترع صنع الزجاج الشفاف . وقد اكتسبت معامل الزجاج الفينيقية شهرة واسعة فكانت تخرج مصنوعات على غاية من الرونق والبهاء وكانت صناعة الخزف العادي والمزيّن ايضاً فرعاً رابحاً في صادرات فينيقية وكان لها التقدم الاعلى زمناً طويلا قبل ان يجاريها الروم والاتراك . ومع ان الفينيقيين ما كانوا يميلون الى الحرب فقد كانوا بالرغم من ذلك يبرعون صنع الاسلحة التي اشتهرت بجمال نوعها . وقد اشتهر صناع صور بتفننهم في صنع التحف الدقيقة من العاج وكانوا يستجلبونهُ خاماً بواسطة قوافلهم او سفنهم . ونبغوا في الصياغة وتنميق الجواهر . وصنعوا الاساور والاقراط والخواتم والعقود على غاية من الذوق السليم وشهرت في ذلك الزمان المغازل ومعامل النسيج والتطريز وصناعة الصبغ الارجوانية المشهورة التي كانت مقعد ملوك جميع البلدان في تلك العصور . وما زالت على مقربة من صور وصيدا تشاهد بقايا المخازين البحرية التي كانوا يستخرجون منها ذلك الصبغ الارجواني

وقد برّز الفينيقيون في صناعات اخرى اهمها انشاء السفن فجعلت منهم اسياداً متصرفين في الملاحة في جميع بحار العالم المعروفة فملأوا شواطئها بمصنوعاتهم واستجلبوا منها ما ينقص بلادهم من المواد الخام

فليس بمستغرب ان يجد علماء الآثار في كل مكان تقريباً اثراً من هؤلاء

المستكشفين الجريئين الذين وضعوا أساس مدنية اليونان والرومان الساطعة التي ما زلنا نتمتع بها حتى اليوم . ولم يقتصر تقدم فن الصناعة في سوريا على زمن الفينيقيين بل بلغ شأواً في عصر أقرب عهداً تحت حكم خلفاء بني امية وبني العباس. ففي دمشق بفضل حماية معاوية أول حكامها أحيا السوريون صناعتهم التي كانت قد اندثرت تحت حكم الرومان .وفي ظل معاوية ومن جاء بعده باسم خلفاء الشام تقدمت المصنوعات السورية تقدماً عظيماً وكونت لنفسها رويداً رويداً طابعاً خاصًّا تحت اسم (Arabesque) اي النقوش العربية مستعيدة بذلك الى الذاكرة اصل من وضع اساسها و بثها من العدم .وقد اخذ هذا الفن الصناعي عند منشأه على شواطىء نهر بردى الى كل مكان دخله العرب المنتصرون

أما فن العمارة الذي نبغوا فيه فقد ترك لنا في سوريا وغيرها آثاراً عديدة قائمة الى اليوم. فمنها مسجد الامويين في دمشق (وكان في الاصل كنيسة مسيحية باسم القديس يوحنا) والمسجد الاقصى في القدس وسراي محطة (Mhatta) بالقرب من معان في حوران. كل هذه من صنع البنائين السوريين الذين نشأوا في مدارس دمشق . وأنواع الاقمشة الحريرية والصوفية الجميلة الفخمة التي يرجع عهدها الى تلك العصور الوسطى كثيرة بين معروضات متاحف كل البلاد . فهذه الآثار الفنية وخصوصاً الكيخاني والعنّاب (الفولاذ) الدمشقي براهين جلية على ان الصناعة كانت زاهرة في سوريا في ذلك العهد من القرون الوسطى

وعدا ذلك فان اوربا لم تتقدم اعمالها الصناعية الاّ بعد عودة الصليبيين من غزواتهم في الشرق فهؤلاء المحاربون حملوا الى اوطانهم عند رجوعهم مجموعة من المعلومات لاستعمالها عندهم اغترفوها من مصانع النسيج والآلات ومخازن السلاح ومعامل الانشاآت التي كانت عندنا في اوج نشاطها

يلزم في الزمن الحاضر لضمان حياة صناعة وتقدمها في مملكة ما اولاً ايجاد المادة الخام ثم الايدي العاملة والقوى المحركة لادارة الآلات وملاحظتها باسعار معتادة . واخيراً اعداد منافذ لترويج هذه المصنوعات . وعدا هذه الشروط الاساسية الثلاثة يجب على اصحاب الحرف ان يوجهوا اهتمامهم دائماً لكل صغيرة من اشغال معاملهم لتخفيض اسعار مصنوعاتهم التي يقدمونها الى الاسواق

وعليهم ايضاً ان يدأبوا في اجادة الصنف لان المنافسة في التجارة قد بلغت

اليوم اقصى حدودها . فكل صناعة لا تتمشى مع التقدم الحديث ولا يبنى العمل فيها على الاقتصاد مآلها الى الخراب المحقق

وليس هناك ما يحول ان يكون لدى سوريا الآن كما في الايام الغابرة صناعات عديدة ثانية . فلديها من المواد الاولى صنوف كثيرة . وان كانت الايدي العاملة اليوم اقل عدداً فعندها من الشلالات ما يعيضها عن ذلك عدها وتقوم لها بما يلزمها من القوى المحركة

فوجود سوريا عند ابواب القارات الثلاث اوربا وآسيا وافريقيا يجعل لها مركزاً جغرافياً ممتازاً يمكنها بسهولة من تصريف مصنوعاتها بين الشعوب القريبة منها . وفضلاً عن ذلك فقد أقامت سوريا في جميع الاوقات كما سبق الذكر الدليل البين على قوة نشاطها الصناعية . ولا يستثنى من ذلك عصور الظلام والاستبداد التي في اثنائها شلت جميع مجهوداتها

وغني عن البيان انهُ ليس للسوريين الآن ان يضارعوا اسلافهم في منافسة المصنوعات الاجنبية بسبب شدة التنافس الاجنبي ولكن يمكنهم على القليل منافسة الغير في صناعة ما تنتجهُ بلادهم . فسوريا بفضل مواردها الطبيعية تصلح ميداناً لصناعات متعددة وكثير منها ما هو موجود في الوقت الحاضر . ومن هذه الصناعات الموجودة ما هو مجهز تجهيزاً حديثاً على ان اكثرها لا يزال على حالتهِ القديمة ونظراً لجهل مستخدميها فليس في مقدورهم ان يقوموا في ادوارهم أو آلاتهم او مصنوعاتهم باي اصلاح يذكر

وعدا ذلك ينقص البلد صناعات اخرى عديدة مما يمكن تعميمهُ بسهولة تعود على البلاد بخدمات جليلة . ومعظم صناعاتنا تنحصر في دائرة النبات

(١) صناعة الطحن

أهم الحاصلات النباتية في سوريا هي الحنطة تزرع في كل مكان في السهول كما في قمم الجبال . وهي اخص ما يتغذى بهِ اهل البلاد . والحبوب تحتاج بادىء بدء الى الطحن والتنعيم كي تكون صالحة للعجن ومن ذلك تنتج ضرورة الطواحين اساس صناعة الطحن

كانت هذه الطواحين أولاً قديمة وغير كبيرة مؤلفة من حجري رحى

مستديرين تمر بينهما الحبات حجرها الاسفل ثابت والاعلى متحرك يدار باليد بواسطة عمود رأسي من الخشب مثبت عليه

وكان لكل عائلة في تلك العصور القديمة آلة خاصة من هذا النوع ضمن متاع البيت . فالرومان هم الذين اعارونا هذه الطواحين اليدوية التي كانوا يلقبونها « الطاحونة الطائشة » ثم استبدلوها بعد ذلك في القرن الرابع للميلاد بطواحين المياه واليوم يندر وجود هذه الطواحين الصغيرة اذ قد استبدلت باخرى اثقل واضخم لان طحن النوع الاول كان خشناً . وهذه الطاحونة الصغرى تسمى في سوريا جاروشة وتستعمل خاصة لتكسير القمح لصنع البرغل

ولما اصبح من الصعب ادارة الطواحين الحديثة باليد نظراً لثقلها الكثير فقد استخدمت قوة الحيوان وقوة المياه لتحريكها وأقيم في غور كل واد طواحين ذات زوجين او ثلاثة ازواج من الحجارة تديرها قوة تيار النهيرات

وبعد ذلك انشئت طواحين تدار بالبخار اذا لم يتيسر ايجاد قوة مائية محركة ثم استبدلت الاحجار الوطنية الخشنة بأخرى اصلب وادق صنعاً منها او باسطوانات معدنية استجلبت خصيصاً من اوربا . وضمت الى الطواحين آلات اضافية لم تكن معروفة لغربلة القمح وتصويله وتجفيفه ثم دفعه للطحن . وعلاوة على ذلك هنالك مبتدعات اخرى لنخل الدقيق حتى يخرج نقياً خالصاً من النخالة (الردة) والمواد الغريبة مما لا يتوفر في الطواحين الوطنية . اما عدد الطواحين المجهزة بالآلات الحديثة فقليلة في سوريا ولبنان ولا يتعدى ١٢ واكبرها موجودة في بيروت يديرها محرك قوته ثمانون حصاناً

ان الميدان فسيح لتقدم صناعة طحن تقوم بمستلزمات مليونين ونصف من السكان . فبحسن استعمال تحدر المياه يتيسر استبدال الطواحين القديمة الصغيرة باخرى احدث نظاماً واكثر قوة وينتج عن ذلك كله نقص عام في المنصرف وازدياد مطرد في المكسب عدا الفائدة التي تعود من استهلاك صنف اقل ثمناً واوفر كمية وافضل نوعاً

وان كان تبديل الطواحين القديمة يتطلب نفقات فوق مقدور بعض اصحاب الطواحين فيسهل تدبير ما يلزمهم بالاتفاق مع البنوك المستعدة لتقديم الاموال متى ضمنت استثمارها بربح معتدل

نلاحظ الآن ان المجرى الواحد من المياه يستخدمهُ عادة عدد عظيم من الطواحين المتفرقة ملك فرد او جماعة فانفراد كل من هذه الطواحين بالاستعمال يكلف في المجموع مبلغاً باهظاً يمكن اقتصاد الكثير منهُ لو استبدل هذا العدد الكثير بطاحونة او اثنتين على نمط احدث المطاحن في نقط منتخبة من المجرى بحيث تنتفع باقوى منحدراتهِ

ويتيسر القيام بهذا التجديد اذا كان المالك فرداً واحداً اما اذا كان جماعة فالعمل قد يكون صعباً ولكن ليس بمستحيل اذ يكفي لذلك ان يتفق الملاك بمقتضى عقد ينص على حقوق كل منهم ومصلحتهِ

وبما ان دمشق وحمص وحماه تعد اعظم الجهات انتاجاً للغلال فهناك يستحسن البدء بمشروع اول مطحنة كبيرة. وموقعها يمكن اهل الفن من التثبت من معرفة حقيقة نوع وقيمة الغلال التي تعرض عليها اما المطحنة فتقام على نهر بردى او العاصي على مقربة من الخط الحديدي لتخفيض تكاليف الانتاج والنقل

لكم فكروا في استعمال نحدر نهر بردى عند محطة « تقيّة » لهذا الغرض اما اليوم فهو يستخدم في انارة مدينة دمشق ومع ذلك فان مجرى النهر ابتداء من بلدة تقيّة الى قرب وادي بردى يصلح لاقامة شلال ذي قوة كافية يمكننا من انشاء مطحنة كبيرة . وشلال اليرموك في تل شهاب يمكن الانتفاع بهِ لطحن غلال حوران

(٢) المعجن الغذائي

انواع القمح كثيرة في سوريا واشهرها يأتي من حوران وهو ذو لون احمر ومميزاتهُ ان حبتهُ قاسية تتكون من طحينهِ معجينة لينة وهذا النوع مطلوب بكثرة في اسواق اوربا لاسيما في ايطاليا لصنع المكرونة والشعرية والسميد والبقسماط الخ

صناعة هذا النوع من المعجن حديثة في سوريا ليس هناك الاّ معملان لها في بيروت والمجال واسع لتقدم صناعتهِ فلِمَ لا نستفيد نحن بمميزات غلالنا بدلاً من تصديرها للاجانب وهم يبيعونها لنا ثانية بعد عجنها وصنعها باسعار مرتفعة . ومما لا شك فيهِ ان لهذه الصناعة متسع في النجاح ومنافسة مثيلاتها من الواردات الاجنبية لانها تملك ميزة وجود المادة الاولية التي يتحتم على أوربا شراؤها من عندنا

(٣) صناعة النشاء

والقمح يستعمل ايضاً لصنع النشاء وهو يستخرج الآن في دمشق وحلب على الاخص وهناك ما يقرب من ثمانين معملاً لذلك ويستهلك النشاء المصنوع في سوريا وفلسطين ومصر للطعام وخصوصاً الحلويات اما النشاء الوارد من اوربا فيستعمل خاصة لكيّ البياضات والملابس وفي الامكان تقليد صنعه والمسألة تستحق محاولة التجربة والاختبار

(٤) صناعة البيرا (الجعة)

ويتلو القمح في الاهمية مما يستهلك من انواع الغلال محصول الشعير فهو يستعمل على العموم غذاء للحيوانات الحلوب واحياناً يستعمله المزارعون بخلط دقيقه مع دقيق القمح لصنع الخبز

والشعير لا يستعمل في سوريا في صنع شيء آخر بينما في اوربا هو اساس صناعة رابحة منتوجها محبوب جداً ويستهلك بكثرة في البلاد الحارة تلك هي صناعة البيرا (الجعة). واذا رجعنا الى قيود جمرك بيروت قبل الحرب نجد ان ١٠٠٠٠ صندوق من زجاجات البيرة كانت ترد سنوياً. ويندر ان يصل هذا المشروب في براميل. وعندي ان هذا المقدار كاف لان ينبه نفوس رجال الاعمال لفكرة انشاء معامل للجعة تعود عليهم وعلى الحكومة بالربح الجزيل

وانشاء هذه المعامل يمكن على السواء على قمم الجبال كما في السهول. والجبال افضل لاننا في الشتاء نستطيع فيها تخزين كميات عظيمة من الواح الثلج الذي يصلح للتبريد في صنع وحفظ الجعة موفراً بذلك ما يستلزمه انشاء معمل تبريد من النفقات الباهظة. وزيادة على ذلك فجبال سوريا بها منابع مشهورة جداً بمياهها العذبة

واننا نتحير في اختيار افضلها اي اكثرها احتواء على المميزات اللازمة لصنع بيرة جيدة اذ المعروف ان قيمة البيرا تتوقف غالباً على نوع المياه المستعملة فيها فلكم حاولوا تقليد البيرة الباقارية التي تعد افضل الانواع في العالم وقلما نجحوا لان المياه المستعملة دون مياه ميونيخ من الوجهة العملية

ومما يؤسف ان تحرم البلاد من زراعة حشيشة الدينار التي تعد اهم عامل في صنع البيرة بعد الشعير والمياه ولن يكون من الصعب انماء هذا النبات عندنا وتعويده مقص وتربة سهولنا التي يغذيها نهر الليطاني وبردى والعاصي ستأتي البقية